الحلقة الثلاثون

(1) (بيروت.. قصر علي باشا.. شهربان تنسج كنزة زهرية اللون لباكيزا.. عثمان ومصطفى يذاكران دروسهما في انتظار مجيء خالد.. علي وسليمان يلعبان الكرة في الحديقة.. عم جلنار كمال باشا يصل لتوه من اسـتنبول.. تنقـل حقيبتـه الـى جنـاح الضيوف.. يجلس غير بعيد يحادث جلنار)

كمال باشا: لقد أطلت غيبتك يا جلنار، وما كـان سـفرك الاّ لمـدة قصيرة توصلين بها أبناء أخيك وتعودين..

جلنار: خالد يرغب في البقاء في لبنان..

كمال باشا: الى متى؟

جلنار: ان خالد يبحث عن عمل ليستقر هنا، شهربان..

كمال باشا: لا أسمح لابنة أخي كمال باشا أن تتغرب.. ان اسـتنبول هي أم الدنيا، فما الذي يغري خالد بالبقاء في لبنان؟ معنى هـذا أنـه عاطل عن العمل حتى الآن؟ كيف كنتما تعيشان؟

جلنار: انه ينزل عند أهله، وأنا أنزل ضيفة على شهربان.. ولكنـه يسعى لعمل ثابت في إحدى الكليات بتدريس العربية.. يمضي وقته في مقر صحيفة لسان الحال التي يرأسها الشيخ يوسف الأسـير، ويـأتي عصرا ليدرس أبناء شهربان اللغة العربية..

كمال باشا: ما هذا الذي أسمعه؟ هل قررت شهربان البقاء الى الأبـد في لبنان لتدرس أبناءها اللغة العربية؟

جلنار: انها باقية لأنها تزوجت لبنانيا..

كمال باشا: (بانزعاج) تزوجت! ماذا يحدث لكن؟ بنات عمومتكن حين تغربن وتزوجن، اخترن أفضل الرجال: نسل شاه تزوجت ابن مهراجا الهند.. التروللي الذي يسير في حديقتها من فـضة.. أختهـا جيهـان زوجة الأمير عبد المنعم من أحفاد محمد علي الكبير، هانزادا أختـك زوجة أخي عبد الحميد الصغير.. أنا ما وافقت على زواجك من خالد الاّ لأنه مدرس في الكلية العسكرية، وصحفي موهـوب يعمـل فـي الجوائب.. فماذا تفعلين هنا مع زوج عاطل عن العمل؟ وماذا تفعـل شهربان وهي ابنة أخت عبد المجيد بزواجها بدون معرفة أهلها لبنانيا من عامة الناس؟

جلنار: ليس زوجها من عامة الناس.. درس الطب في مصر، وأردفه بدراسة الحقوق في الأزهر، وله مكتب وعمل مرموق في إدارة مالية الفوج الرابع في لبنان..
كمال باشا: (متنهدا) لقد خطبت أليسار الى إبنـي الأميـر ابـراهيم، وجئت بنفسي لأصطحبكم جميعا الى اسـتنبول لحـضور عرسـها..
(يدخل خالد ومعه شاب لم تره شهربان من قبل.. تترك النسيج مـن يدها على الطاولة وتقف لاستقباله)
خالد: (الى شهربان) ألم تعرفيه؟
شهربان: (تتأمل الوجه الصبوح والعينين السوداوين والشعر الأسـود المسرح الى الجنب، والشاربين الكثيفين الطـويلين المبـرومين الـى الأعلى وتهتف) حسن! كم تغيرت! امتلأ جسدك النحيل.. أوحى لـي لباسك الفرنجي الكحلي الأنيق، والقبة الـصغيرة البيـضاء، والعقـدة المتدلية الحمراء بأنك أحد أمراء الـبلاط، أو أحـد قناصـل الـدول الذين يستقبلهم والدي في القصر..
خالد: هذا عثمان وهذا مصطفى اللذان حدثتك عنهما (الـى ولـدي شهربان) هذا الدكتور حسن أخو محمود، جاء من مصر وعين علـى الفور أستاذا في الكلية الطبية التابعة للجامعة الأمريكية.. رأيته اليـوم في مقر جريدة لسان الحال، فجئت به ليعينكما في اختيار الترجمـات المناسبة للسنة الأولى في الجامعة..
شهربان: انني أعرفه منذ كان في السادسة من عمره..
خالد: وأنا أعرفه، منذ ولد.. كان ما بين عائلتينا نحن والشيخ يوسف الأسير صداقة عمر.. (كمال باشا وجلنار يتوقفان عن الحديث.. خالد وحسن يسلمان عليهما ويجلسان.. تقوم شهربان بتعريف حسن اليهما.. يصل محمود وينضم الى المجموعة.. كمال باشا يدعو الجميـع الـى حضور عرس أليسار في استنبول)
محمود: أنا لا أستطيع أخذ إجازة، والعمل ملح لدي..
شهربان: وأنا لا أستطيع السفر فلدي طفلة ترضع وأخشى عليها مغبة السفر..
كمال باشا: ألديك طفلة؟
شهربان: نعم، لقد حان وقت إرضاعها.. أستأذن.. (يعود خالد وحسن الى حيث جلس عثمان ومصطفى وأخذوا يتداولون شـؤون الدراسـة والصعوبات التي تعترضها.. على الطاولة مجموعة الكتـب الطبيـة

باللغة الإنجليزية التي يتصفحها حسن، ويقرأ بعض الترجمات لفصول منها ويعلق عليها)

حسن: (الى خالد) انها جيدة غزيرة المعلومات، ولكن في وضع عثمان ومصطفى لا يستفيدان منها كما يستفيدان من الكتب المنهجية التي كنت أدرس فيها عاما بعد عام في مصر.. وأثناء تدريسي في الجامعة ستكون محاضراتي مترجمة عن هذه الكتب وسأزودك بها لتدريس عثمان ومصطفى اللغة العربية العلمية (خالد يترجم حديث حسن الى التركية)

كمال باشا: (الى علي) أتحدثك أمك باللغة التركية؟

علي: أمي تحدثني بالتركية، ولكن بابا محمود يكلمني بالعربية..

كمال باشا: وتفهم اللغتين؟

علي: نعم، وأكتب الأحرف والأرقام باللغتين، فأنا في الصف الأول الإبتدائي..

كمال باشا: ما شاء الله، ما شاء الله!

سليمان: (موضحا) علي ترجمان لنا على ما يعصى علينا فهمه.. ثروته الكلامية متميزة في سنه الصغيرة..

كمال باشا: (الى سليمان) ألا تحب العودة الى استنبول تستكمل فيها دراستك؟

سليمان: أنا أكون حيث تكون أمي وعلي (تعود شهربان وينصرف محمود الى مجموعة خالد وحسن)

كمال باشا: أنا لن أناقشك ياشهربان فيما اخترته لحياتك لأنك حرة في شأنك.. أما أبناؤك فأنا بمثابة جدهم، ولا يمكن لي أن أتركهم في كنف رجل غريب..

شهربان: ليسوا في كنف رجل غريب.. انه زوجي الذي يرعاهم كأب لهم حريص مثلي على مصلحتهم، وهم يعيشون في قصر جدهم.. وقرب أمهم التي أنجبتهم..

كمال باشا: كيف يكملون دراستهم في هذه البلـد، وهـم لا يعرفـون العربية؟

شهربان: أنا ومحمود نتدبر أمر دراستهم.. ان والد محمـود وأخـاه مدرسان في الجامعة الأميركية: والده يدرس اللغة العربية وآدابها في الجامعة، وأخوه يدرس في كلية الطب، ولا يحتاجون الاّ الـى إتقـان العربية ليدخلوا الصف الذي يمكنهم من متابعة دراستهم ان كانت في الإعدادية أو الثانوية أو الجامعية.. أما علي فدراسته منتظمة وسـيتقن اللغتين العربية والتركية في آن واحد..

كمال باشا: أريد أن أعرف رأيهم، فهـم فـي سـن يقـدرون فيـه مصلحتهم.. وخصوصا عثمان ومصطفى.. (خالد وحسن يأتيان لوداع شهربان)

حسن: ان لك ابنين ممتازين يا هانم، وسينجحان ويتفوقان في مهنـة الطب لأنهما يرغبان في هذه الدراسة، وسنكون أنا وخالد عونا لهمـا في تحقيق طموحهما..

شهربان: سمني باسمي كما كنت تفعل وأنت صغير..

حسن: أتذكرين هديتك لي في العيد؟

شهربان: أية هدية؟

حسن: المكبرة التي تكبر الأشياء عشرين مرة.. منذ ذلك الوقت كنت مسحورا بعالم النبات الطبي، أصنفه وأعرف فوائده في علاج الكثيـر من الأمراض الشائعة.. وحين يطبع لـي المخطـوط الـذي يحـوي المعلومات التي اختزنتها في البلاد التي عشت فيها: في الأناضول الى جبال لبنان، الى مصر الى سيناء، سأهديه لك، أنـت التـي عرفـت بفراستك ميولي..

شهربان: (ضاحكة بابتهاج) لست أنا التي عرفت ميولك، بل وصيفتي التي كانت تزور أهلها في الجبل، وتأتيك بأنواع الأعـشاب الطبيـة لتصنفها في دفترك..

حسن: (ضاحكا) على كل حال انه تذكار عزيز علي، ولقد بقي سليما عندي حتى الآن.. ما زلت أنظر في العدسة لأفحص العيون، والطفح والبثور والبقع البيضاء التي تظهر على جلد المريض لأعرف العلـة خلفها..

شهربان: لاتطل غيابك عنا فلدي طفلة هي ابنة أخيك أريد أن أضعها تحت إشرافك بشكل دوري..

(2) (شهربان ومحمود في غرفة نومهما)

شهربان: استطاع هذا المنافق كمال باشا خلال الأيام الثلاثة الماضـية أن يقنع عثمان ومصطفى بالعودة الى استنبول، وإكمـال دراسـتهما الثانوية ودخول كلية الطب.. ففي هذه الكلية مدرسون أجانـب مـن الألمان وأساتذة أتراك درسوا الطـب فـي ألمانيـا وهـم يحـسنون الألمانية..

محمود: أنا لم أرتح أبدا لكمال باشا منذ رأيته.. نظرتـه المتعاليـة واستخفافه بالآخرين، وضـحالة ثقافتـه وغـروره وجـشعه كانـت تثيرأعصابي.. حاولت جهدي أن أتماسك فلا يثور غضبي وأطرده من بيتي.. ولكن كيف استجاب عثمان ومصطفى له؟

شهربان: لعب على وترين حساسين عند عثمان ومصطفى: كبريائهما في أن يكونا عالة على أحد، وصـعوبة انـدماجهما فـي المجتمـع اللبناني.. حين فوجئ بزواجي قال "أنا لن أناقشك فيما اخترته لحياتك، أما أبناؤك فأنا بمثابة جدهم، ومن حقي أن أرعاهم، ولن أسـمح لهـم بالعيش في كنف رجل غريب"..

محمود: ان وراء تمسكه برعايتهم منفعة خاصة به.. ولعلـه طـامع بالراتب الذي أجري لهم بعد استشهاد والدهم في المعركة..

شهربان: سلم فمك! كيف عرفت بهذا؟

محمود: أنا رجل حقوقي، وأعرف ما يدور في أذهان أمثال هـؤلاء الناس..

شهربان: لقد ذكر لهم صعوبة نقل الراتب الي بعد أن تزوجت.. وذكر أيضا أنه لا يحق لي شرعا الاّ رعاية علي الـذي هـو دون الـسن القانونية..

محمود: قولي له أننا لسنا بحاجة الى هذا الراتب، والله يرزقنـا مـن حيث لا نحتسب.. ولكننا لا نسمح له أن يخطط لمـستقبلنا ومـستقبل أولادنا أبدا! اننا نعرف الشرع الإسلامي الذي جاء به الرسول العربي ونلتزم بهديه: أن لا يكون لزوج امرأة مـسلمة سـقط زوجهـا فـي المعركة، وكان لها أولاد وثروة منه، أن يكون له الحق فـي ثـروة زوجته، لتكون خالصة لأبنائه حين يبلغون سن الرشد.. هذا الراتـب من حقك في شرع الإسلام تستثمرينه بنفسك وتنفقين منه على أولادك! ولا يجردك الزواج ثانية من أي من حقوقك..

شهربان: لا أريد أن أؤجج العداء معه، فأنا أعرف القوى التي تحميه في القصر، انها عمياء مغرضة، وربما اتهمك بالعداء للسلطان ووشى بك فتودع في السجن بلا محاكمة.. إسأل خالد يخبرك عمـا يجـري هناك.. عهد عبد الحميد الذي بدأ بتعزيز القوانين التي صدرت زمـن عبد المجيد في التأمين على الحياة والممتلكات والشرف، والمـساواة التامة لجميع رعايا السلطنة العثمانية مهما كـان عرقـه أو مذهبـه، انتهكت فيما بعد، وأصبح حكمه أكثر تسلطا من حكم عبـد العزيـز وأكثر دموية..

محمود: أعرف هذا..

شهربان: لم أنم طيلة الليل يا محمود.. وتوصلت الى قرار أحلاه مر.. ليذهب عثمان ومصطفى الى استنبول فهذا أيسر لدراستهما.. لا أريـد لهما أن يحرما من المنافع الكثيرة المتاحة لهما في العاصمة، ولكـن علي أن أحذرهما من الإنتماء الى أي حزب أو حركـة سياسـية، أو يتورطا في نقد الأوضاع أمام أحد.. ففي الأيام المظلمة تتطلب الحكمة خفض الرؤوس خوف حصادها.. ليكن هدفهما العلم وحده، وليذهبا مع كمال باشا وجلنار ويحضرا عرس أليسار..

محمود: كمال باشا لم يسع لتزويج أليسار الى ابنه ابراهيم الاّ ليـضع يده كذلك على ممتلكات إبن أخيه..

شهربان: هذا ما أدركته أنا الأخرى.. ان يومي عـصيب فعلـي أن أرتب الحقائب لسفرهما في الغد..

* * *